ملابسنا

فى كتب اللغة

بقلم مصطفى السقا

المحرر بمجمع اللغة العربية الملكية

من القواعد التى وضعها مجمع اللغة العربية الملكى للعمل بها عند وضع الألفاظ بازاء المعانى المستحدثة أن يبدأ بالبحث عن الألفاظ العربية الفصيحة ، التى استعملها القدماء فى أغراض تشبه أغراضنا فى العصر الحاضر .

وقد خطر لى أن أدرس باب الملابس فى المعاجم العربية وكتب فقه اللغة ، لعلى أجد فيها من فصيح الألفاظ ما يسد بعض حاجتنا فى هذا الباب ، فقد استأثرت اللغات الأجنبية بالتعبير عن كثير من شئون حياتنا ، وانقطعت الصلة أو كادت بين أسماء ملابسنا القديمة وملابسنا الحاضرة ، فإذا عرض لنا من أسماء الملابس القديمة شىء فيما نقرأ من كتب الأدب أو اللغة لم نفهمه ، وكأننا أمام رسم دارس من رسوم الأولين : نحاول حل رموزه ، والكشف عن ألغازه .

قد يكون من الحق أن ملابسنا الحاضرة تختلف كثيرا عن ملابس العرب فى الجاهلة والإسلام ، لأن كثيرا من أزيائنا مستعار من المدنية الغربية الحديثة ، فليس من العجب إذاً أن تكون الكثرة من أسماء الملابس أجنبية كمسمياتها .

غير أننا لا نزال نجد فى كتب العرب جملة من أسماء الملابس تشبه

مسمياتها بعض مانلبسه فى هذا العصر مسمى بغير اسمه العربى ، مع فروق يسيرة اقتضتها أحوال الزمان والمكان .

فإذا استطعنا أن نتجاوز عن الفروق التى لا تمس الجوهر استطعنا أن نحيى ألفاظا عربية تغنى غناء بعض الألفاظ الأعجمية ، التى نستعملها فى غير ضرورة ماسة .

وإنى أعرض فى (صحيفة دار العلوم) ما وجدته من أسماء الملابس التى يمكن وضعها لبعض ما نلبس ، راجيا من محبى البحث اللغوى أن يتبعوها بالنقد والتمحيص ، برا بالعربية ، وضنابها أن ترمى بالعقم ، وفيها من غوالى الكلم ، ونفائس الدُّرر ما يزرى باليواقوت والجوهر .

ما يوضع على الرأس

القَلَنْسُوة : الطربوش .

الكُمَّة : طربوش العمة .

فى اللسان — القَلَنْسُوة والقَلَنْسية ... من ملابس الرأس، معروف.

وفى اللسان أيضا — الكُمَّة : القلنسوة المدورة ، لأنها تغطى الرأس .

وفى الحديث : « كانت كِمام أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بُطْحا » (وفى رواية أكمة) . قال : هما جمع كثرة وقلة للكمة : القلنسوة . يعنى أنها كانت منبطحة غير منتصبة .

وفى الأساس — واعتم على الكُمَّة ، وهى هذه القلنسية اللاطئة بالرأس ، على مقداره . وتقول : لاتحسن العمَّة ، إلا على الكُمة .

هذه النصوص أوضح ما فى المعاجم العربية فى تفسير القلنسوة والكُمة . وهى فى الحقيقة قاصرة لاتصور المعنى ، بالدقة التى يطلبها هذا العصر ، وقد نسى أصحاب المعاجم أن العُرف الذى يحيلون عليه فى تعريف

الأشياء الطبيعية حينما يقولون : (نبات معروف ، أو حيوان معروف) لا ينبغى الإحالة عليه فى مثل الملابس ، لأنها أمور صناعية تختلف باختلاف البيئات والعصور .

بعد هذا أقول : أنكتفى من المعاجم بأن القلنسوة والكُمَّة من ملابس الرأس ، مع ملاحظة ما بينهما من فرق . فنضع القلنسوة فى استعمالنا اللغوى بدلا من (الطربوش) والكُمة بدلا من (طربوش العمة) . ونغض النظر عن المادة واللون والهيئة الخاصة ؛ أم نقول إن العرب وضعت كلا من القلنسوة والكمة اسما لمسمى خاص ، ولا يجوز أن يجعل اسم الشىء علما على آخر لما يتبع إخراج الألفاظ عن معانيها الأصلية من فساد فى اللغة ، وخفاء فى الاستعمال ؟

الذى أختاره التوسع ، وحمل الأمر على المجاز ماوسعنا المجاز بعلاقاته وقرائنه ، وحسبنا هنا أن كلا من القلنسوة والكمة من ملابس الرأس ، وأن الأولى منتصبة (على هيئة الطربوش) والأخرى منبطحة لاطئة بالرأس . وفى هذا التشابه فى الغرض والصنعة ما يحملنا على ألا نتردد فى إيثار اللفظين العربيين على اللفظين الدخيلين .

على أن مايمتاز به اللفظان العربيان من وجود صيغ أفعال من مادتهما ، ووجود مصادر ، وجموع للقلة وللكثرة أحيانا ، يجعلهما أصلح للبقاء ، وأحق بالايثار ، وأحسن تصرفا فى أساليب الكلام .

ما يوضع على الجسم

نرى قبل تسمية أنواع الملابس التى تلبس على الجسم أن نتكلم على طبقاتها ، وقد قسمها القدماء إلى طبقتين ، شعار ودثار ، وقد يكتفى أصحاب المعاجم فى شرح الكلمة بأن يقولوا : هى شعار ، أو دثار ، أو نحو ذلك .

الشعـــار

فالشِّعار : اسم لكل ثوب يلى جسم الإنسان ، سواء أكان من القطن أم من الصوف أم من الحرير أم من غيرها ؛ وتختلف هيئة تفصيله كما تختلف مادته باختلاف أحوال الناس فى الغنى والفقر ، وباختلاف الأجواء وطبائع البلاد ، وباختلاف الأشخاص ذكرانا وإناثا . وقد يفهم كل هذا من إطلاق اللغويين لفظ الشعار من كل قيد سوى ملامسة جسم اللابس .

قال صاحب اللسان : الشعار : ماولى شعر جسد الإنسان دون ماسواه من الثياب ، والجمع أشعرة وشُعُر . وفى حديث الأنصار : « أنتم الشعار ، والناس الدِّثار » أى أنتم الخاصة والبطانة . اه

الدثار

والدِّثار : هو الطبقة الثانية تلى الشعار ؛ وقد يكون ثوبا واحدا أو أكثر . قال فى المصباح : الدثار ما يتدثر به الإنسان ، وهو ما يلقيه عليه من كساء أو من غيره ، وتَدَثَّر بالدثار : تلفَّف به . وفى القاموس : الدِّثار (بالكسر) ما فوق الشعار من الثياب .

الملاحف

واللغويون يسمون الملابس التى يتغطَّى بها اللابس من نحو الرداء والجبة والملاءة بالملاحف ، كما يطلقونها على الأغطية التى يتدثر بها فى النوم.

قال صاحب اللسان : اللحاف والمِلْحف والمِلْحفة : اللباس فوق سائر اللباس من دثار البرد ونحوه ، وكل شىء تغطيت به فقد التحفت به . اه .

وجمع اللحاف : لُحُف . وجمع المِلْحف والمِلحفة : ملاحف .

المقطعات وغيرها

وجدير بى هنا أن أشير إلى أن الثياب التى تلبس نوعان ، فمنها : ما يُقطَّع ويُفصَّل على قدر الجسم ، ومنها ما لا يفصل . قال صاحب اللسان فى مادة (قطع) :

المقطع من الثياب : كل ما يفصل ويخاط ، من قميص وجباب وسراويلات وغيرها . وما لا يقطع منها كالأردية والأزُر والمطارف والرِّياط التى لم تقطع ، وإنما يتعطف بها مرة ، ويتلفع أخرى .

وهذا الفرق الذى ذكره صاحب اللسان وشارح القاموس ينفعنا كثيراً حين نقرأ الباب الذى عقده ابن سيده فى الجزء الرابع من المخصص بعنوان (الملاحف) فإنه لم يذكر فيه من الملاحف إلا ما لم يُفَصَّل ولم يُخَطْ ، كالأردية والأزُر والرياط والمعاطف .

وعلى ذكر المعاطف أحب أن أنبه على شىء التبس على بعض الناس فهمه . فقد شاعت كلمة المعطف بيننا اسماً لذلك الملحف الذى يسميه الناس (البالطو) وسمته إحدى لجان المجمع (المِدْرع) فليس من شك أن (البالطو) مما يفصل ويخاط . ولكن العِطاف أو المعطف الذى ذكره ابن سيده فى المخصص : رداء ، أى ثوب غير مخيط ولا مُفَصَّل يُرْتَدَى على المنكبين والكتفين ومُجْتَمَع العنق ، ثم يعطف طرفه ، أى يثنى . قال الراغب فى المفردات : المعطف يقال فى الشىء إذا ثُنِىَ أحد طرفيه إلى الآخر ، كعطف الغصن والوسادة والحبل ، ومنه قيل للرداء المثنى عِطاف .

فما أحقنا أن نعدل عن كلمة معطف (للبالطو) لأنها وضعت فى غير موضعها .

أنواع من الملابس

المجسد . الغطاية . الغلالة

فى تاج العروس — المجسد (كمنبر) : ثوب يلى الجسد ، أى جسد المرأة فتعرق فيه . وقال ابن الأعرابى : « ولا تخرجن إلى المساجد فى المجاسد » هو جمع مجسد ، وهو القميص الذى يلى البدن . اه

ومثل المجسد الغطاية والغلالة . قال ابن سيده فى المخصص : الغطاية : ما تغطت به المرأة من حشو الثياب تحت ثيابها . والغلالة نحوها ، وهما أيضاً الشعار . اه

وفى الأساس — وبرزت فلانة فى غلالة ، وبرزن فى غلائل ، وهى شعار يلبس تحت الثوب للبدن خاصة . اه

هذه ألفاظ عربية فصيحة عذبة هجرناها وآثرنا عليها ألفاظاً دخيلة هى (الفانلة والكاشكورسيه) ونحوهما من الألفاظ التى يتحدث بها النساء حينما يردن أنواع الأشعرة التى تلى أجسامهن .

قد يقول قائل : إن لهذه الألفاظ الدخيلة دلالة خاصة ، كالدلالة على النسيج ذى الهدب ، أو الذى يمتد إذا مد ، وكالدلالة على هيئة التفصيل من حيث طول القميص أو قصره ، ووجود الأكمام أو عدمها ، ونحو ذلك مما لم يلاحظ فى ألفاظ المجسد والغطاية والغلالة .

وجوابنا عن هذا أن الصفة الأساسية للشعار أنه الثوب الذى يلى الجسد من أية مادة ، وعلى أية هيئة . وهذا المعنى ملحوظ فى الألفاظ العربية . فالمجسد الذى يلى الجسد ، والغطاية التى تغطيه ، والغلالة التى يُتَغَلَّل فيها ، أى يُدْخل . وهذه المعانى أثبت على الزمان ، وأبقى من هيئة التفصيل ، ونوع النسيج ، ورقته أو صفاقته ، مما يختلف باختلاف أحوال الناس وبيئاتهم .

وقد يفهم من نصوص المعاجم السابقة أن الألفاظ الثلاثة لشعار النساء خاصة، وهذا صحيح فى الجسد والغطاية، أما الغلالة فالذى يظهر أنه عام فى شعار الرجال والنساء. قال صاحب اللسان: الغلالة: شعار يلبس تحت الثوب، لأنه يتغلل فيها أى يُدْخل. وفى التهذيب: الغلالة: الثوب الذى يلبس تحت الثياب. اهـ

فصاحب اللسان وصاحب التهذيب يطلقان القول فى الغلالة، ولا يخصانها بالنساء، ولكن ابن سيده ذكرها فى الجزء الرابع من المخصص فى الصفحة ٣٨ وعدها من ملابس النساء وثيابهن. وقد يستأنس لجعل الغلالة من ملابس الذكور بقول الشاعر:

لا تعجبوا من بِلَى غلالته قد زر أزراره على القمر

فإن ضمير صاحب الغلالة مذكر، هذا إذا لم يرد به الشاعر معنى الحبيب ونحوه.

بقى فى تفسير الغلالة قول الراغب الأصفهانى فى المفردات فى غريب القرآن وهو:

الغِلالة: ما يلبس بين الثوبين، فالشعار لما يلبس تحت الثوب، والدثار لما يلبس فوقه، والغلالة لما يلبس بينهما. وهذا أغرب ما رأيته فى تفسير الغلالة

القميص

جمعه أقمصة وقُمْصان وقُمُص. وهو مذكر إلا إذا قصد به الدرع الحديدية.

وكتب اللغة تتفاوت فى تحديد معنى القميص، وأكثرها يحيل على العُرف، فيقول صاحب اللسان: «القميص الذى يلبس معروف، مذكر».

ويزيد عليه صاحب القاموس فيقول: «القميص وقد يؤنث

- م - (معروف) ولا يكون إلا من قطن ، وأما من الصوف فلا » . اهـ
وزاد الشارح بعد (من قطن) أو كتان .

والمعروف أن القميص من الشعار ، ولم يصرح بذلك من أصحاب المعاجم القديمة غير شارح القاموس إذ يقول : « وذكر الشيخ ابن الجزرى وغيره أن القميص ثوب مخيط بكمين غير مُفرَّج ، يلبس تحت الثياب..... قال شيخنا : وقال قوم : ولعله مأخوذ من الجلدة التى هى غلاف القلب ، وقيل مأخوذ من التقمص ، وهو التقلب » .

وقال ابن سيده : « قميص القلب : شحمه ، أراه على التشبيه » . اهـ .

وصاحب المنجد من المتأخرين يقول : « القميص ما يُلبس على الجلد » . اهـ

ولفظ القميص فى العربية هو عينه فى بعض اللغات الأوربية (Chemise) ويدل على نحو ما يدل عليه اللفظ العربى ، ولذلك زعم بعض الباحثين فى الألفاظ أن اللفظ العربى معرب عن اللاتينية (انظر (كتاب تفسير الألفاظ الدخيلة ، للقس طوبيا العنيسى الحلبى اللبنانى) .

ولكن المعجمات العربية لم تنص أن اللفظ مُعَرَّب ، ولعله مما تنوُسى تعريبه ، لقدمه فى اللغة .

هذا ، والقميص فى العربية من ملابس الرجال والنساء . وفى القرآن العزيز : (إن كانَ قَميصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ) . وقال الشاعر :

ابت الروادف والثُّدِيُّ لقُمْصها مَسَّ البطون وأن تمس ظهورا

وخلاصة هذا البحث أن القميص هو الكلمة الرابعة التى تدل على الشعار فى العربية ، وإذا سلمنا أن الألفاظ الثلاثة السابقة خاصة بشعار النساء ، فالقميص لشعار الرجال والنساء جميعا ، فلنستعمله بدلا من كلمة (فانلة) للرجال والنساء .

الإتْب ـ المِتْبَة

ذكر صاحب اللسان وصاحب القاموس وشارحه فى تفسير الإتب والمتبة أقوالا كثيرة ، نختار منها التفسيرين الآتيين :

١ ـ « الإتب ـ من الثياب ـ ما قَصُر فنَصَف الساق » .

٢ ـ « الإتب : قميص بغير كمين » .

وإذا لم نشغل أنفسنا بالأقوال الأخرى التى نقلت فى تفسير الإتب ، جاز لنا أن نجمع بين هذين القولين وأن نطلق الإتب أو المتبة على ذلك الثوب الذى ينصُفُ الساق ولا كم له ، وهو الذى يسميه سيدات العصر (قميص النهار) وهو ما يلبس تحت الدرع .

الدرع

فى المخصص ـ دِرْع المرأة : قميصها ، مذكر ، والجمع أدراع . اهـ .

وفى اللسان ـ درع المرأة : قميصها ، وهو أيضا الثوب الصغير تلبسه الجارية الصغيرة فى بيتها ، وكلاهما مذكر ، وقد يؤنثان . وقال اللحيانى : دِرْع المرأة مذكر لاغير ، والجمع أدراع . وفى التهذيب ـ الدرع : ثوب تجوب المرأة وسطه ، وتجعل له يدين ، وتخيط فرجيه . ودُرِّعت الصبية ، إذا أُلبست الدرع . اهـ

وفى القاموس ـ الدِرع من المرأة : قميصها ، مذكر ، والجمع أدراع . اهـ

هذه النصوص تكاد تتفق على أن درع المرأة قميص ، لولا ما نقله اللسان عن التهذيب من أن الدرع ثوب . . . الخ .

وأنا أميل إلى أن الدرع ليس قميصا ، بل هو الثوب الذى يلبس فوق القميص ، وهو الذى نسميه بلسان العامة (جلباب البيت) . ويساعدنا على هذا عبارة التهذيب السابقة ، وقول آخر نقله ابن سيده فى المخصص عن

ابن السكيت فى تفسير معنى السُّبجة إذ يقول : السُّبْجة : درع عرض بدنه إلى عظمة الساعد ، يخاط جانباه ، وله كُمّيم صغير طوله شبر ، يلبسه ربات البيوت ، فأما الجوارى فيلبسن القُمُص .

فهذا القول صريح فى أن الدرع ليس من القمص ، وإنما هو شىء آخر تلبسه ربات البيوت ، وقد يفهم من قوله (يلبسه ربات البيوت) أنه موصوف بزيادة فى السعة والطول يمتاز بهما عن القميص ، ليناسب ربات البيوت فى احتشامهن وأسنانهن .

وأصرح من ذلك فى أن الدرع غير القميص قول أبى منصور الثعالبى فى الباب الثالث والعشرين من كتاب فقه اللغة :

الإتب والقرقر[1] والقرقل ، والصدار والمجول ، والشوزر : قمص متقاربة الكيفية فى القصر واللطافة وعدم الأكمام ، يلبسها النساء تحت دروعهن[2] ، وربما اقتصر عليها فى أوقات الخلوة ، وعند التبذل . اهـ .

فهذا القول غاية فى الصراحة فى أن الدرع يلبس فوق القميص ، وليس هو القميص ، ونحن نستحسن جدا أن نطلق لفظ الدرع على (جلباب المنزل) أى ما يسمى : (Robe)

السُّبْجة — السَّبيجة

وأحب ألا أترك هذه الفرصة تمر دون أن أحيى لفظا عربيا هو (السُّبجة أو السَّبيجة) التى سبق شرحها فى الكلام على الدرع ، فقد

---

(١) نقلنا هذا النص من كتاب فقه اللغة بحروفه ، وصاحب تاج العروس يقول فى تفسير (القرقل) ما يأتى : « وهو الذى تسميه العامة (قرقر) . وفى التهذيب : ونساء أهل العراق يقولون (قرقر) وهو خطأ .

(٢) خالف أبو منصور جمهور اللغويين الذين جمعوا درع المرأة على (أدراع) ولم يجمعوه على دروع .

تجاهلنا هذا اللفظ ، وأحيينا بدلا منه لفظا دخيلا كثيرا ما يرد على ألسنة سيدات العصر ، وهو (Robe Japanese) .

المجـــول

المخصص ـــ المجول : درع خفيف تجول فيه الجارية . اهـ

الأساس ـــ وبرزت فى مجولها ، وهو ثوب تلبسه الفتاة قبل التخدير ، تجول فيه . اهـ

اللسان ـــ المجول ثوب صغير تجول فيه الجارية . غيره ـــ والمجول: ثوب يثنى ويُخاط من أحد شقيه ، ويجعل له جيب ، تجول فيه المرأة ، وقيل : المجول للصبية ، والدرع للمرأة .

القاموس ـــ المجول (كمنبر) : ثوب للنساء أو للصغيرة .

تقول هذه النصوص: إن (المجول) ثوب تلبسه الفتاة فى البيت وفى خارج البيت قبل أن تقصر فى الخدر . أو هو ثوب تجول فيه المرأة فى البيت . والمراد أنه درع تلبسه ربة البيت تجول فيه .

وأنا أستحسن قول من قال (المجول للصبية ، والدرع للمرأة) . فإذا ضممنا هذا القول إلى قول الزمخشرى السابق فى الأساس ، جاز أن نطلق كلمة المجول على (الفستان) الذى تلبسه فتيات المدارس مثلا ومن فى أعمارهن .

المعرض

فى القاموس ـ المعرض (كمنبر) : ثوب تجلى فيه الجارية .

وفى المصباح ـ المعرض (وزان مقود) : ثوب تجلى فيه الجوارى ليلة العرس . وهو أفخر الملابس عندهم ، أو من أفخرها .

وقد وضعت إحدى لجان المجمع كلمة المعرض (لفستان العروس) ولكن قواعد المجاز لا تأبى إطلاق هذا اللفظ على كل ثوب فاخر تلبسه المرأة أو الفتاة فى المنزل عند الزيارات مثلا ، وفى المجتمعات الخاصة أو العامة ، وهو ما يطلقن عليه اسم (الفستان) .

الجلباب

كثيرا ما نسمع من الشبان والفتيات الأنيقات كلمة فرنسية هى (Robe be Chambre) يعنون بها ذلك الثوب الذى تجلل به الثياب فى المنزل ؛ وعندنا فى العربية مرادف عربى فصيح لهذا اللفظ الفرنسى ، وهو (الجلباب) فاسمع إلى ما يقوله اللغويون فى معناه :

المخصص — عن صاحب العين - الجلباب : ثوب أوسع من الخمار دون الرداء ، تغطى به المرأة ظهرها وصدرها . اهـ .

اللسان — وقيل هو ثوب واسع دون الملحفة (الملاءة) تلبسة المرأة ، وقيل هو الملحفة ، وقيل هو ما تغطى به المرأة الثياب من فوق كالملحفة . اهـ

القاموس — الجلباب (كسرداب وسنمار) : القميص ، أو ثوب واسع للمرأة دون الملحفة تغطى به ثيابها من فوق كالملحفة ، أو هو الخمار .

وتتلخص أقوال اللغويين فى تفسير الجلباب فى أنه يطلق على الخمار والقميص ، والملحفة ، وثوب واسع للمرأة دون الملحفة تغطى به ثيابها من فوق كالملحفة .

وهذا المعنى الأخير هو الذى يناسب ما نريده من هذا البحث ، فهو منطبق على معنى (Robe de Chambre) ، فهل يتاح لهذا اللفظ الواحد الخفيف أن يتداول على ألسنة الخاصة والمثقفين من شبابنا وشوابنا ، ليدلوا على حب لغتهم وغناها ؟

بقى أن النصوص السابقة تفيد أن الجلباب من ملابس النساء ، فهل يجوز إطلاقه على ما يلبس الرجل من هذا النوع ؟

وجوابنا عن هذا أن علاقة الاطلاق والتقييد فى المجاز تساعد على تعميم اللفظ فيما يلبسه النساء والرجال ، ولا ضير ؟

« للبحث بقية »

مصطفى السقا